دار المنظومة
DAR ALMANDUMAH
الرواد في قواعد المعلومات العربية

العنوان:	الأيديولوجيا و العلوم الإنسانية
المصدر:	مجلة الطليعة
الناشر:	مؤسسة الأهرام
المؤلف الرئيسي:	اسكندر، أمير
المجلد/العدد:	س 6, ع 12
محكمة:	لا
التاريخ الميلادي:	1970
الشهر:	ديسمبر
الصفحات:	50 - 58
رقم MD:	391880
نوع المحتوى:	بحوث ومقالات
قواعد المعلومات:	HumanIndex
مواضيع:	الأبديولوجيا، العلوم الإنسانية، الفكر الاشتراكي، البحث العلمي، المدرسة الماركسية
رابط:	http://search.mandumah.com/Record/391880

© 2021 دار المنظومة. جميع الحقوق محفوظة.
هذه المادة متاحة بناء على الإتفاق الموقع مع أصحاب حقوق النشر، علما أن جميع حقوق النشر محفوظة. يمكنك تحميل أو طباعة هذه المادة للاستخدام الشخصي فقط، ويمنع النسخ أو التحويل أو النشر عبر أي وسيلة (مثل مواقع الانترنت أو البريد الالكتروني) دون تصريح خطي من أصحاب حقوق النشر أو دار المنظومة.

الأيديولوجيا

.. والعلوم الانسانية

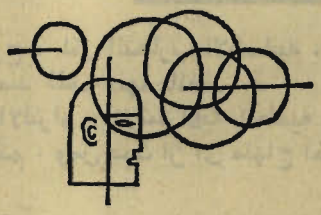

أمير اسكندر

— ١ —

اصبح من المألوف فى الكتابات الجارية ، ان نقرأ عبارات تصف عصرنا — اكتسبت لكثرة ترديدها طابعا تقليديا — بأنه عصر العلم ، او عصر التكنولوجيا . والعلم المشار اليه فى هذه العبارات ، هو بطبيعة الحال ، العلم الطبيعى الذى يرتبط فى اذهان الغالبية الساحقة من القراء ، بالتطور الصناعى ، وبالثورة التكنولوجية . ذلك أن مفهوم العلم ، كما قدمه معظم الكتاب والباحثين والمفكرين فى بلادنا ، حتى داخل الاوساط الاكاديمية الخالصة ، أوشك ان يقتصر على مجموعة الابحاث الطبيعية والكيميائية والبيولوجية ، وهى الابحاث التى ترتبط — بطريقة أو بأخرى — بالتطور الالى ، وما ينتج عنه من نتائج تطبيقية واضحة ومباشرة ، وتنهض على بعض الاسس المنهجية المحددة ، مثل التجربة والقياس والحتمية . أما الموقف من مجموعة العلوم الانسانية ، فهو لا يكاد يخرج فى مجموعه عن اتجاهين — اذا استثنينا اتجاه المدرسة **التكاملية المصرية** فى علم النفس — هما : أما محاولة اخفاء معظم سمات العلوم الطبيعية من الناحية المنهجية ، على هذه العلوم الانسانية ، وحصرها داخل الاطار التجريبى الضيق ، واما اعتبارها نوعا من العلوم الفلسفية التى تعتمد أولا وقبل كل شىء على التحليلات العقلية المنظمة ، غير القابلة للطبيعة موضوعها — للخضوع للنزعة التجريبية الصارمة ، التى تخضع لها العلوم الطبيعية . وغير خاف أن الاصول الفكرية لكلا الموقفين واحدة . وهى ربط العلم كمفهوم بالنزعة الالية ، وربط التجريب العلمى بنمط معين من التجربة . والنتيجة المنطقية لذلك ، هى احاطة التصور الخاص بالعلوم الانسانية ، فى وجداننا الثقافى العام ، بجو من الغموض والشك ، او على أقل تقدير ، بنوع من النظرة « الدونية » التى تعتبر هذه العلوم الانسانية أقل دقة من الناحية المنهجية ، وأقل قيمة من الناحية الموضوعية ، وأقل أهمية من الناحية العملية ، بالقياس الى مجموعة العلوم الطبيعية .

وليس أدل على ذلك ، من أن الميزانيات

المخصصة للابحاث فى ميدان العلوم الانسانية ، لا تكاد تقارن ، بتلك الميزانيات المخصصة للابحاث فى ميدان العلوم الطبيعية ، حتى داخل الجامعة نفسها ، والتى تبلغ نسبتها ١ ، ٣ر٣٦ فى جامعة القاهرة (١) • غير أن الغريب فى الامر ، أن هذا الفارق الفادح بين النسبتين ، لايكاد يقارن هو أيضا بالفارق بين ميزانية الابحاث الطبيعية وميزانية الابحاث الانسانية ، فى بلاد متقدمة كأمريكا وانجلترا على سبيل المثال •ففى ميزانية عام ١٩٦٦ نفسه بلغت ميزانية الابحاث فى العلوم الطبيعية والهندسية فى الولايات المتحدة الامريكية حوالى خمسة عشر بليون دولار ، اذا اضيفت اليها المساعدات الاخرى الثانوية وغير المباشرة بلغت حوالى عشرين بليون دولار ، فى الوقت الذى تضاءلت فيه ميزانية الابحاث فى العلوم الانسانية الى حد التقتير البالغ • ونفس الوضع ينطبق على الفارق الهائل بين الميزانيتين فى انجلترا ، الذى تصل نسبته الى ١ : ١٠٠ ، وهى •نسبة مخيفة ، ومهددة لمستقبل البحث فى ميدان العلوم الانسانية (٢) •

وما من شك فى أن هذا الوضع المتعلق بميزانيات الابحاث الانسانية ـ او الاجتماعية ـ يعكس طبيعة النظرة التقويمية لهذه العلوم فى هذه المجتمعات المتقدمة ذات النظام الرأسمالى • وهى مجتمعات تنطوى ـ بطبيعة نظامها ـ على موقف محدد ازاء كل أنواع البحث العلمى ، يعتمد على مبلغ الناتج المباشر ، فى التطبيق العملى السريع ، لهذه الابحاث ، فضلا عن اعتبار آخر لا يقل أهمية هو نظرتها التقويمية الى الانسان نفسه ، داخل اطار نظامها الاجتماعى ـ وربما الى مفهوم العلم ايضا ـ من حيث ان القيمة الاكبر تعطى للبحث الذى يدر ربحا سريعا مباشرا ، وللالة التى تمثل وسيلة الحصول على هذا الربح ، بصرف النظر عن الانسان الذى لا يرتفع الى مستوى الالة فى سلم القيم ، الذى تؤمن به هذه المجتمعات « ذات البعد الواحد » على حد تعبير **هربت ماركيوز** •

غير أن المفروض أن يكون هذا الوضع مختلفا تماما ، فى مجتمعات أخرى تتبنى نظما اشتراكية او لا رأسمالية ، وتعتبر الانسان ، او الفردية الانسانية ، قيمة أعلى ، من قيمة الالة • فعملية الصناعة نفسها « ليست سوى سلوك بشرى عبر آلة معينة ، ونحو هدف معين هو انتاج سلعة ما ، وأن السلعة التى تصل الى أيدينا ليست بالتالى من انتاج الالة وحدها ، ولكنها من انتاج سلوك بشرى عبر هذه الالة » . ونسيان هذه الحقيقة « هو الذى ادى بنا فى نهاية الامر الى اغفال الشىء الاخر من التكنولوجيا الحديثة ، وهو التكنولوجيا البشرية » (٣) •

فاذا كان الامر كذلك ، فلابد من احداث نوع من الموازنة بين النظرة الى العلوم الطبيعية والنظرة الى العلوم الانسانية ، على أساس أن هذه العلوم الانسانية لا تقل فى قيمتها وأهميتها عن العلوم الطبيعية ، لا من ناحية البحث العلمى الخالص فحسب ، بل وحتى من ناحية الاستثمار الاقتصادى نفسه ، واكسابه طابعا انسانيا أيضا •

ولعل من المفيد أن نحدد من البداية ، المقصود بالعلوم الانسانية . ذلك لان مفهومها لا يحظى باتفاق عام بين كل الباحثين فى ميدانها • فمفكر كبير مثل **جورج لوكاش** لا يخفى تشككه فى هذه «التقسيمات» التى تتعلق بالعلوم الانسانية . انه يقول : « اننى اعتقد أن كثيرا من هذه التقسيمات ، أكاديمية خاصة • أعنى أنها تقسيمات يقوم بها اساتذة الجامعات داخل المدرجات الجامعية . والحقيقة أن الانسان كائن اجتماعى متكامل • وماركس لم يكن يفصل بين الاجتماع والاقتصاد مثلا • ان الاجتماع عملية اقتصادية وتاريخية •• هل تستطيع القول ماذا كان كتاب رأس المال ، كتابا فى الاجتماع أم الاقتصاد أم التاريخ ؟ بين كل عشرين حالة ، هناك تسع عشرة حالة لا تستطيع أن تقول فيها بشكل محدد قولا فصلا • خذ تقسيم العمل مثلا ، هل هو ظاهرة اقتصادية أم اجتماعية أم تاريخية ؟ انه كل ذلك جميعا • اننى اريد القول انه ينبغى النظر الى الحياة الاجتماعية كوحدة • لقد تطورت الكفاءات التكنيكية للانسان فى القرن العشرين تطورا كبيرا ، وتحققت اشياء ما كان يحلم بها الانسان منذ عدة قرون ، ولكن الانسان ككائن اجتماعى لم يتطور بنفس الدرجة •• والانسان الامريكى الذى يعيش فى أعلى مستوى تكنولوجى لم تتطور شخصيته بنفس القدر ، وعلى نفس المستوى ، على الرغم من كل التقسيمات التى لا تنظر الى الكيان الانسانى كوحدة واحدة متكاملة » [٤] .

---

[١] انظر : نحن والعلوم الانسانية ـ الدكتور مصطفى سويف ـ القاهرة ١٩٦٩ ، ص ٧٢ـ٧٦ ، وهذه النسبة طبقا لميزانية ١٩٦٦/٦٥ .

[٢] هذه الاحصائيات منقولة من مقال الدكتور احمد ابو زيد المنشور فى مجلة « عالم الفكر » المجلد الاول ـ العدد الاول ١٩٣٠ ص ١٩٨ وهى لاتتعلق ـ بالطبع ـ بميزانية الابحاث فى الجامعات وحدها . ولكن بميزانيتها فى المجتمع كله ، بكافة مؤسساته .

٣ ـ نحن والعلوم الانسانية ـ المرجع السابق ص ٢٢

[٤] حوار مع اليسار الاوربى المعاصر ـ كتاب الهلال ـ يونيو ١٩٧٠ ص ٢٣٥ ـ ٣٦

وليس لوكاش نسيجا وحده فى هذا الموقف من العلوم الانسانية ، وان كان يمثل الاتجاه المتطرف الذى يوشك ان ينكرها تماما ، او على الاقل ينكر استقلاليتها • فهناك عدد من المفكرين الكبار ايضا الذين اسهموا فى هذه العلوم الانسانية اسهاما يصل الى حد تأسيس بعض فروعها ، ينكرون فروعا اخرى منها ، ولا يدخلونها داخل اطارها. فأوجست كونت مثلا الذى يعتبره بعض المؤرخين مؤسسا لعلم الاجتماع ، ينكر اعتبار علم النفس واحدا من هذه العلوم الانسانية • ويجرى اميل دوركايم مجراه فى التقليل من شأن هذا العلم الى حد يقترب من اسقاطه من الاعتبار . بينما يرفض مالينوفسكى اعتبار التاريخ علما بين العلوم الانسانية ، وان كان يعترف بعلم النفس بين تلك العلوم، غير انه مهما كانت وجهة نظرلوكاش أو كونت أودوركايم أو مالينوفسكى أو غيرهم من المفكرين والعلماء حول المقصود من عبارة العلوم الانسانية ، فالامر الذى يوشك أن يكون موضع اتفاق الكثرة من المشتغلين المعاصرين بهذه العلوم ، هو أنها مجموعة الابحاث التى تدرس مظاهر النشاط الانسانى الذى يتعلق بالفرد أو الجماعة أو المجتمع • ومن ثم فهى تضم بشكل عام علم الاجتماع ، وعلم النفس ، وعلم الاقتصاد ، والانتروبولوجيا ، والادارة العامة ، وبعض فروع من التاريخ والجغرافيا والقانون • وهذه الابحاث تختلف عما يعرف باسم « الانسانيات » التى تتعلق بدراسة الادب والفن والفلسفة ، وما يجرى مجراها (٥) •

والسؤال الذى يطرح نفسه على الفور ، عند أى محاولة لتحديد موضع العلوم الانسانية فى الميدان الواسع للمعرفة الانسانية ، هو : الى أى مدى تعتبر « العلوم الانسانية » ، « علوما » بالمعنى المتفق عليه منهجيا لكلمة « العلم » ؟ وبطريقة أخرى : ما مبلغ اقتراب هذه العلوم الانسانية أو ابتعادها عن الحدود المتفق عليها للمنهج المطبق فى العلوم الطبيعية ؟ •• وليس ثمة شك فى أن محاولة الاجابة على هذين السؤالين ، تقتضى طرح مشكلة الذاتية والموضوعية فى العلوم الانسانية •

— ٢ —

كان كارل ماركس يقول ان تاريخ الانسانية ، هو تاريخ صراع الطبقات . وربما امكن القول قياسا على ذلك ، أن تاريخ المعرفة الانسانية ، هو تاريخ الصراع من أجل السيطرة على ظواهر الطبيعة والمجتمع والانسان • ومن ثم يكون من المجافاة لمنطق التاريخ ، ولبداهة العقل ، تصور أن الابحاث التى تتعلق بالظواهر الاجتماعية والانسانية ، لم تظهر الا فى العصور الحديثة ، بظهور ما يعرف اليوم باسم « العلوم الانسانية » ، فمنذ بزوغ الفكر الانسانى — فى تاريخه المعروف — كانت هناك محاولات لفهم ما يدور فى المجتمعات البشرية من ظواهر وأحداث • ويكاد يجمع معظم مؤرخى التفكير الاجتماعى على أن أقدم صورة لهذه المحاولات ، قد ظهرت فى مصر القديمة والصين. وهى بالطبع لم تتخذ شكل النظريات المتكاملة أو الجهود النظرية المنسقة ، ولكنها كانت — فى هذه اللحظة الباكرة للتطور الانسانى — جهدا مساوقا للجهود التى كانت تبذل لفهم اسرار الكون والغاز الطبيعة المحيطة بهم حينذاك .

وقد لا يكون من الملائم ، فى هذا المجال ، تتبع تطور التفكير الاجتماعى تتبعا تاريخيا منذ نشأته حتى الان ، وبلوغه تلك الدرجة من المعرفة المنظمة التى بلغها فى اطار العلوم الانسانية المعاصرة، ومع ذلك ، فمن المفيد الاشارة العامة لاهم المراحل الرئيسية التى قطعها هذا التفكير ، حتى وصل الى هذه المرحلة التى يحاول فيها — اوتحاول اتجاهات أساسية فيه — التشبه بالعلوم الطبيعية فى مناهجها وأدواتها •

ولقد كان الفكر اليونانى القديم ، هو أول محاولة منظمة لوضع النظريات الاجتماعية المتكاملة — ذات الطبيعة الفلسفية بطبيعة الحال — فى فهم المجتمع الانسانى ، ودراسة أو تأمل طبيعة التطور الذى يمر به • ويقف افلاطون فى مقدمة اصحاب هذه النظريات بكتابه «القانون» . ويرى بعض المؤرخين أن أفلاطون قد سبق التطوريين فى القرن التاسع عشر ، بحديثه عن طبيعة التطور الاجتماعى ، وعن المراحل الزمنية التى يقطعها حتى يبلغ غايته • كما يرون أن فضل افلاطون يعود الى أنه — على عكس المفكرين الاجتماعيين الذين سبقوه — حاول أن يدرس المجتمع « كوحدة » أو بالتعبيرات الحديثة « ككل » مترابط الاجزاء • ولقد تبعه مفكر عظيم آخر هو « أرسطو » الذى أسهم ببحوثه فى العلاقات السياسية والاجتماعية ، خصوصا فى كتابه « السياسة » • ويرى أولئك المؤرخون أن أرسطو — على عكس أفلاطون — حاول دراسة هذه العلاقات على أساس من المنهج الاستقرائى ، بينما كان أفلاطون يستند فى دراسته لها على اساس المنهج القياسى ، او الاستنباطى، وان دراساته تلك هى التى قادته الى تأكيد

Sociology. History of Subject and Methods, Jan Szczepanski, Polish Sociological Bulletin, No 1 1966.

الطبيعة الاجتماعية للانسان ، وضرورة وجود العلاقات الاجتماعية لنمو الشخصية الانسانية .

ولعل « **ابن خلدون** » ، كان أول مفكر يتعرض لفكرة التقدم ووحدة العمليات الاطرادية الاجتماعية . ولا شك أن فضله يعود الى تأكيده للفصل بين ما دعاه بالتاريخ القصصى الحافل بالوهم والخرافة ، والتاريخ العلمى الذى ينهض على أساس من استقصاء الحقائق ، ورفض الامور التى تتعارض مع طبائع الاشياء والتسلسل المنطقى للاحداث ، كما أنه من المفكرين الاوائل الذين الحوا على فكرة « القانون الثابت » ، الذى ترتبت عليه دعوته الىاقامة علملدراسة المجتمعاسماه « علم العمران » ، ويرى « بارنس » ، فى كتابه « مدخل لتاريخ علم الاجتماع » [ص١٤] ، ان ابن خلدون قد توصل الى فكرة المراحل التى تمر بها المدينة ، وكشف عن مفهوم للتغير المستمر تمر به الحضارة ، وعن وحدة العوامل النفسية والبيئية فى احداث عملية التغير والتطور التاريخى ، ومن ثم فان «بارنس» يدعوه «مؤسس فلسفة التاريخ» لانه سبق « فيكو » الذى كان يعتبر مؤسس هذه الفلسفة باكثر من ثلاثة قرون من الزمان .

ولقد مرت محاولات دراسة الظواهر الاجتماعية بعد ذلك عبر العصور المظلمة ، ولم تبرز منخلالها محاولة « **القديس اوغسطين** » فى « مدينة الله » ، وهى محاولة سيطرت عليها بالطبع النزعة الصوفية المسيحية ، والفلسفة السكولائية ، فى تفسير التاريخ على أنه واحد من المظاهر التى ينعكس فيها فعل العناية الالهية ، وتدخلها فى الامور الانسانية . وترجع أهمية المحاولة التى قام بها أوغسطين الى أنها طبعت بميسمها محاولات الفلاسفة والمفكرين المدرسيين جميعا ، وظهرت اثارها فيما ظهر فى كتاباتهم من حديث عن « التدبير الالهى » والقضاء والقدر » — و « الغائية » المحكومة بالارادة الالهية .

ولقد ظهرت بعد ذلك ، محاولات مدرسة « العقد الاجتماعى » مع بداية العصر الحديث . وكان من أبرز ممثليهاكما هومعروف ، **روسو وهوبز وجون لوك** ، على اختلاف نظراتهم الاجتماعية ومناهجهم أو مناحيهم الفكرية . وتتابع المفكرون والفلاسفة فى الادلاء بتفسيراتهم الفلسفية والنظرية للظواهر الاجتماعية ، وللمجتمع الانسانى ، وللسلوك البشرى . وشهدت مسيرتهم عمالقة من امثال كانت ، وهيجل . غير أن هذه النظريات كانت فى مجموعها جزءا من مذاهبهم ، ولبنة فى أبنيتهم الفلسفية والمذهبية .

ولا شك أن التحول الكبير الذى ظهر فى ميدان العلوم الانسانية — وخصوصا فى ميدان علم الاجتماع — كانعلى يدى اوجستكونت بفلسفته الوضعية .. وهو **اول من استخدم كلمة علم الاجتماع** Sociology فى عام ١٨٣٩ . ولقد بدأت ارهاصات هذا العلم الجديد ، فى تفكير **كونت** ، فيما قبل ذلك بحوالى سبعة عشر عاما ، حينما ادرك بتأثير من **سان سيمون** ضرورة **أنشاء هذا** العلم الجديد الذى كان يدعوه حينذاك بالفيزياء الاجتماعية ، قياسا على الفيزياء النباتية والحيوانية ، والفلكية والارضية ، والكيميائية . وكان يعنى به دراسة الظواهر الاجتماعية بطريقة « موضوعية » ينظر بها الى هذه الظواهر الاجتماعية ، كما ينظر الى الظواهر الفلكية والطبيعية والكيميائية والفسيولوجية ، بهدف الكشف عن القوانين الثابتة غير المتغيرة التىتخضع لها ، ويكونهذا الاكتشافهوالموضوع الاساسى للبحث والاستقصاء الذى يقوم به العلماء فى ميدان هذا العلم .

ويرى بروفيسير «**جان زشبانسكى**» ، انتاريخ السوسيولوجيا يمكن أن ينقسم الى مرحلتين كبيرتين : الاولى : هى مرحلة « الاتساق Systems السوسيولوجية الكبرى ، التى استغرقت منذ بداية القرن التاسع عشر حتى ثلاثينات القرن الحالى . والثانية : هى مرحلة السوسيولوجيا الجديدة New Sociology التى تتسم بالتخصص والانضباط المنهجى، وسيادة التجريب على النظر المجرد . وهذه السوسيولوجيا الجديدة « تتألف من مجموع التأكيدات والفروض والقوانين التى تشكل هيكل المعرفة اليقينية فى هذا النظام العلمى » (٦) . بينما ترى باحثة أخرى هى «**ماريا هيرزوفتش**» أن السوسيولوجيا الجديدةيمكن ان تنقسم الى ثلاثة اتجاهات رئيسية ، الاولى : هو الاتجاه التاريخى ، والثانى : هو الاتجاه التحليلى ، والثالث : هو الاتجاه التجريبى . وعلى الرغم من ان الباحثة تصدر عن منطلق ماركسى، فانها ترى أن السوسيولوجيا الجديدة ينبغى أن تستهدف اقامة نوع من بين المركب يجمع بين الاتجاهات الثلاثة ، ويشكل العمود الفقرى للسوسيولوجيا المعاصرة . وهى تتساءل فى دراستها عن الدور الذى يمكن أن تقوم به الماركسية (التى تشكل عصب الاتجاه الاول) فى اقامة هذا المركب الجديد . ومع ذلك فهى لا تعطى الاجابة المحددة عن هذا التساؤل ، وتكتفى بالقول

---

[٦] المرجع السابق .

بأنها انما تطرح اتجاها عاما فى البحث ، وللبحث ، ولا تود ان تصل منه الان الى نتائج نهائية محددة (٧) ٠

ومهما يكن الامر ، فى هذه التقسيمات والتصنيفات المتعددة ، فان الوضع الراهن يشير الى ان ثمة اتجاهين اساسيين يمثلان قطبى التفكير لا فى السوسيولوجيا وحدها . وانما فى العلوم الانسانية بشكل عام . الاتجاه الاول : هوالاتجاه التجريبى الخالص، الذى يمثل المرحلة التطورية الاخيرة ، فى سلسلة سبقتها اولا الوضعية التقليدية — التى مثلهاأوجست كونت — فى علم الاجتماع ، والسلوكية فى علم النفس ، والمذهب التاريخى فى التاريخ والمدرسة الاثنوجرافية فى الانتروبولوجيا . ثم — ثانيا — المدرسة الوظيفية التى ظهرت ارهاصاتها الاولى على يدى « دوركايم » فى علم الاجتماع ، والتى طورها ونماها انتروبولوجيون من امثال **مالينوفسكى ، ورادكليف براون** ٠

اما الاتجاه الثانى : فهو الاتجاه الماركسى ٠ وهو اتجاه يسود فى معظم الدول الاشتراكية الاوروبية ، وتمثله جزر مستقلة داخل تيارات العلوم الانسانية فى اوروبا الغربية وامريكا .

ما هى سمات المدرسة التجريبية الخالصة فى العلوم الانسانية ؟ ، وما هى سمات المدرسة الماركسية : « فيمايتفقان،وفيمايتباعدان»؟

ان توضيح هذه الفروق سوف تمثل الاجابة على السؤال الذى طرح من قبل هو كيان العلوم الانسانية « كعلوم » ، وحول مشكلة الذاتية والموضوعية التى تتعلق بمنهجها ٠ وهذه الاجابة سوف تقترب بنا كثيرا من المشكلة الاساسية التى تجتهد هذه السطور فى معالجتها ، وهى مشكلة العلاقة بين الايديولوجيا والعلوم الانسانية ، او الايديولوجيا فى العلوم الانسانية .

— ٣ —

السمة الرئيسية للمدرسة التجريبية — أو الوضعية الجديدة كما يسميها الاستاذ **جيرزى** فياتر — تتلخص فى محاولتها التشبه بالعلوم الطبيعية واستعارة مفاهيمها وادواتها المنهجية. وفى محاولة التشبه هذه تجتهد فى أن تلتزم بالقواعد الاتية : أولا : الموضوعية أو الحياد ٠

ثانيا : البعد عن التقييم ٠ ثالثا : استخدام المناهج الكمية والرياضية ٠

أ — ما المقصود بهذه الموضوعية او هذا الحياد ؟

المقصود بها أن يعتبر العالم الظواهر الانسانية التى يدرسها كما لو كانت « اشياء » ، وكانها صورة أخرى للظواهر الطبيعية والكيميائية والبيولوجية التى يدرسها العلماء الطبيعيون والبيولوجيون ٠ لا ينبغى أن يطلب العالم من الذى يدرس الظواهر الاجتماعية والانسانية سوى الحق وحده ٠ وأن يتجنب تماما أى وقوع فى الميول والمصالح والاهواء الشخصية ، مهما كانت طبيعة هذه الميول والمصالح والاهواء : سياسية أو اقتصادية او اجتماعية ٠ الملاحظة والوصف والتحليل وتقديم النتائج ، بصرف النظر عن الاستخدامات التى سوف توظف فيها هذه النتائج خيرا او شرا . ان التمييز بين الخير والشر لا يدخل فى اطار العلم كما يقول اصحاب هذا الاتجاه ٠ ان العالم يريد لنتائجه أن تكون بعيدا عن الموازين الاخلاقية للخير والشر ، كما هو الحال فى نتائج العلوم الطبيعية ٠ وهو يشارك العالم الطبيعى الارتفاع فوق استغلال نتائجه للاهداف الخيرة او الشريرة ، فحتى لو استغلت هذه النتائج لاهداف لا يرتضيها كانسان أو كفرد فى المجتمع ، فهو لا يملك مع ذلك — كعالم — الا أن يسهل تحقيقها ٠ انه يؤمن بان القاعدة التى ينبغى عليه الالتزام بها هى الصراع ضد الاتجاهات « اللا علمية » التى تتدخل بمقاييسها « المعيارية » فى عمله ٠ ان قاعدته هى التحرر من أى التزام خلقى أو سياسى او اجتماعى يمكن أن يؤثر على بحثه او على نتائجه ٠ ان دعاة التجريبية والوضعية الجديدة يعتبرون قبول « نمط » البحث العلمى فى العلوم الطبيعية ، الذى يعنى « عدم الالتزام » بأى شىء سوى البحث ، والبحث فحسب ، نقطة تحول هامة فى تاريخ العلوم الانسانية ٠ ان العالم ، فى نظرهم ، لم يعد عضوا مساهما فى أى صراع من صراعات عصره ، انه مراقب فحسب ، وشاهد يصف ولا يصدر حكما ٠ ان عليه أن يقدم الاسلحة العقلية ، ولكنه ينسحب من الميدان فى اللحظة التى يبدأ فيها استخدامها ٠ أن ابحاثه هى مسئوليته القصوى والوحيدة .

ولقد كان « **جورج لندبرج** » وهو احد اعمدة الوضعية الجديدة فى علم الاجتماع — يقول لا

---

[٧] Sociological Confrontations. Marxism and Contemporary Sociology, Matia Hiarzowicz Po: Socialogical Bulletin 1-65 - P.129.

ينبغى على العلم أن يتورط فى أصدار أية « أحكام تقييمية » · ذلك أن القضايا ذات الطابع العلمى والقضايا ذات الطابع الاخلاقى . لا يمكن ردها احداها للاخرى · ومن ثم ينبغى على علم الاجتماع ان يبتعد اقصى ما يكون عن احكام القيمة . وكان « ماكس فيبر » وهو احد العلماء الكبار الذين اثروا فى التفكير الاجتماعى هو ايضا ، يدعو الى التخلص من اية احكام تقييميه فى العلوم الانسانية . وكان يرى فى ذلك ، لا مجرد التزام بقواعد المنهج العلمى فحسب ، وانما وسيلة للتخلص من سيطرة الحكومات والسلطات فى أى مجتمع ، واداة للاستقلال والبعد عن اى نوع من التدخل الخارجى ايضا ، ولا شك ان فكرة البعد عن اصدار الاحكام التقييمية هى الوجه الاخر لفكرة الحياد .

ولكن هل يمكن لفكرة الحياد أن تقوم أصلا فى العلوم الانسانية ؟

ان العلم بواقعة انتحار هتلر ، فى بدروم دار المستشارية ، بعد هزيمته فى الحرب الثانية على سبيل المثال ، يتسم « بالحياد الاخلاقى » ، بالقدر الذى نعتبر به العلم بهذه الواقعة مجرد فقرة فى نشرة للاخبار · ولكن أى محاولة لمزيد من وصف هذه الواقعة لابد ان ينطوى على نتائج معيارية ، لانه سوف يفرض على المرء استخدام الفاظ وكلمات لها دلالات تقييمية محددة . والعلم بالنسبة المئوية لعدد حوادث الطلاق بالنسبة لعدد الزيجات ، او بالنسبة المئوية لعدد العاملات بين المواطنات فى أى مجتمع ، قد يكون « علما محايدا » كذلك اذا عالجنا هذه الارقام كوقائع رياضية او احصائية معزولة تماما فحسب ، ولم نحاول أن نستخلص منها أية نتائج اجتماعية لها صفة الشمول والتعميم . وبتعبير آخر ، يمكن القول أن المعرفة الاجتماعية تكون محايدة ، وبعيدة عن أية احكام تقييميه ، بالقدر الذى تكون به نتائجها ضئيلة ، وعلاقاتها بالحياة الاجتماعية ككل ضعيفة ومتهافتة .

ان المعرفة الاجتماعية هى دائما ملتزمة ، لان العالم ليس بوسعه ان يضع جانبا مجموعة القيم التى قبلها كشخص ، وكعضو فى مجتمع ، وكمواطن فى امة ، وكجزء من طبقة ، او حركة او حزب او تنظيم سياسى او اجتماعى · **ان العلم الاجتماعى حوار دائم بين العالم والموضوع الذى يدرسه · وفى هذا الحوار يكون العالم دائما هو القطب الذى يعبر ويصوغ الاتجاهات والمواقف فى الموضوع الذى يدرسه** · وخطورة أسطورة الحياد هذه ، ليست فى احتمال انسحاب العالم من التصدى لحل الصراعات الاجتماعية المعاصرة ، فطالما أن العالم يقوم بوظيفته كباحث او استاذ فى جامعة ، فهو لا يستطيع الفكاك من المعارك الجارية ، ولكن خطورتها تكمن فى انها تضعف جانب الالتزام بالوقوف الى جانب العدالة والحرية والتقدم ، وانها قد تؤدى به الى الوقوع فى حبائل الاتجاهات الرجعية والمحافظة (٨) ·

واذا كان « لندبرج » يقول انه يحاول أن يفهم المجتمع · ويحاول أن يطبق العلم ومناهجه فى هذه المحاولة ، وأنه لا يبغى من دراسته أن يقدمها للرجل العادى ، وأن عالم الاجتماع اذا استطاع ان يفهم – عن طريق العلم – حركة المجتمع والافراد ، فهو سوف يتمكن ان يسهم بدور فعال فى انقاذ الانسان واصلاح المجتمع ، فان بعض نقاده وعلى رأسهم « دون مارتن ديل » قد استخلصوا من نظرياته الوضعية والتجريبية المتطرفة ، ، انه «قد ترك الانسان بلاامل » وانه قد حول قيمه وغايته ، حبه وكراهيته الى نوع من التوترات التى تتطلب التخفيف ، والى نوع من الاختلال الذى يمضى نحو التوازن · فالانسان لا يمكن ان يماثل جزئيا أو ذرة ، ولا سبيل الى تمثيل سلوكه بحركة الجزئيات او الذرات ، والا فاننا نجرد الحياة الاجتماعية من حيويتها وقيمتها (٩) ·

اما عن دعوى البعد عن التقييم بهدف البعد عن السلطات والاستقلال عن الحكومات ، فهى دعوى ساذجة · فالواقع ان الغالبية الساحقة من العلماء ، هم موظفون فى الحكومات والجامعات وهيئات البحث · وسواء كان هذا العالم فى الشرق أو فى الغرب فهو خاضع اراد ذلك ام لم يرد – للمناخ العام الذى يسود فكرية النظام الذى يتبعه · واذا لم تكن هناك اية حكومة ، تتصف بالحياد داخل مجتمعها ، فمعنى ذلك أن هذا المناخ العام لا يمكن ان يكون محايدا · وليس اكثر من الشواهد الواقعية التى تشير الى أن السلطات فى أى مجتمع تتدخل – بطريقة او بأخرى – وتوجه ، بل واحيانا تطلب نتائج معينة ! ··وأكثر من هذا ، ربما كانت بعض مراكز الابحاث المستقلة كهيئات او المنضوية تحت لواء جامعة من الجامعات ، خاضعة خضوعا مباشرا او غير مباشر ، لبعض

---

[٨] Committed Sociology Jerzy J. Wiatr, P. 421

[٩] The Nature and Types of Socialogical Theories, Don Martindele, 1968. P. 121 -- 122.

أجهزة المخابرات فى مجتمعاتها . وليست الوقائع التى كشفت فى السنوات الاخيرة حول نشاط وكاله **المخابرات المركزية الامريكية** بعيدة عن الاذهان ، ولا يمكن القول أن مراكز الابحاث التابعة لها ، أو بعض الجامعات الكبرى مثل جامعة كولومبيا ، تستهدف غاية موضوعية منزهة عن الغرض . ولقد ذكر « **الدكتور أحمد أبو زيد** » فى كتابه « البناء الاجتماعى ، مدخل لدراسة المجتمع » (١٠) كيف اهتم عدد من العلماء الانتروبولوجيا فى أمريكا ، لاسباب تتعلق بالحرب والدعاية ، بدراسة شعوب الاعداء والحلفاء على السواء . ولا يمكن القول اذن ، ان هذه الدراسات كانت لوجه العلم وحده ، أو بهدف الوصول الى نتائج موضوعية بعيدة عن الاحكام التقييمية كما يزعم اصحاب هذا الاتجاه. **فالوقائع التاريخية تقول أن الحكومات وأجهزة المخابرات قد زادت من استعانتها بالعلماء ابان الحرب العالمية الثانية ، لتحقيق اهداف معينة تتوافق مع مصالحها** »، بل ان بعض هؤلاء العلماء قد تولوا شئون الحكم والادارة فى المناطق التى تم فتحها ، وقاموا بعدد من الدراسات فى اثناء ذلك . كما يذكر الدكتور أحمد أبو زيد فى مقاله السابق « ازمة العلوم الانسانية » (١١) نقلا عن الباحثين « **جيرث ولاندو** » أن **مجلة علم الاجتماع الامريكية** » رغم كل الازمات والشدائد التى مرت بالعالم قبل الحرب العالمية الثانية ، ورغم اقتراب العالم من تلك الحرب بسرعة هائلة ومخيفة لم تنشر مقالا واحدا عن **الحزب النازى** الا فى عام ١٩٤٠ ، أى بعد أن كانت الحرب قد نشبت بالفعل، وانه خلال الفترة الطويلة بين عامى ١٩٣٣ ـ ١٩٤٧ لم يظهر فى تلك المجلة ذاتها ـ رغم عصريتها واهميتها بالنسبة لعلم الاجتماع سوى مقالين اثنين عن (الاشتراكية القومية) وأن فهرس المجلة التحليلى خلال خمسين سنة كاملة لم يرد فيه ذكر كارل ماركس والماركسية سوى ثلاث مرات فقط بينما لا توجد فيه أية اشارة على الاطلاق الى **لينين** واللينينية . ولا يزال كثير من علماء الاجتماع فى أمريكا بوجه خاص يغضون الطرف عن الازمات الطاحنة التى يمر بها العالم الان ، والتى تتمثل بالنسبة لامريكا نفسها فى التفرقة العنصرية ، وحرب فيتنام والظلم الاجتماعى وانتشار الجريمة ، وما الى ذلك .. ويدرسون موضوعات غريبة وبعيدة عن المألوف ليجذبوا الانظار اليهم، بينما يغفلون دراسة بعض الظواهر الهامة كالثورة الثقافية فى الصين التى تؤثر فى حياة ما لا يقل عن ستمائة مليون نسمة ، والتى يعتبرها كثير من المفكرين أكبر حركة جماهيرية فى تاريخ الجنس البشرى. ويرى الدكتور احمد ابو زيد ان المسئول الاول عن ذلك هو « الرغبة الجامحة فى محاكاة العلوم الطبيعية فى نظرتها الى موضوعات تخصصها، وطريقتها فى معالجة هذه الموضوعات واتباع نفس المناهج ، والطرق وما تطلبه هذا كله من التخصص الضيق الدقيق » . [ص ٢١٠] . ومع ذلك فلعل المرء لا يملك الا ان يتساءل : اهى محاولة تقليد العلوم الطبيعية فى مناهجها واساليبها فحسب هى التى قادت مثل هذه المجلة العلمية الهامة لاغفال هذه الموضوعات الحيوية حتى داخل مجتمعها نفسه، ام ان ثمة عناصر اخرى، بعيدة عن محاولة هذا التقليد ، ولعلها بعيدة عن كل ما يتصل بالمنهج العلمى ، هى التى قادت المجلة لاغفال هذه الموضوعات؟ الايتعلق الامر هنا بقضية « التوجيه » الخارجى ، والتدخل من قبل الهيئات والسلطات فى اختيار موضوعات البحث ؟ اليس تناول مثل هذه الموضوعات ـ الزنوج والتفرقة العنصرية ، حرب فيتنام ، الظلم الاجتماعى ، انتشار الجريمة ، مما يقلق السلطات ويزعج اصحاب الامر فى تسيير دفة المجتمع الامريكى ؟

جـ ـ واذا كانت الدعوة الى اعتبار العلوم الانسانية « علوما » تناظر العلوم الطبيعية ، دعوة قديمة ترجع الى القرن التاسع عشر ، كما بدى فى اطلاق أوجست كومت على علم الاجتماع فى البداية اسم « الفيزياء الاجتماعية » فالدعوة كذلك الى استخدام المناهج الكمية والاحصائية ، ليست دعوة حديثة كذلك ، وهى تعود فيما يرى بعض الباحثين ـ فى الانتروبولوجيا ـ الى تيلور .

ومع ذلك ، فالظاهرة الجديدة ، هى اعتقاد كثير من الباحثين فى العلوم الانسانية ان ما لا يمكن قياسه ، او ما لا يمكن اخضاعه للقياس ، ليس من قبيل المعرفة العلمية المضبوطة . ويجدر القول فى هذا الصدد ان هذه المشكلة المنهجية ، قد تعرضت لها العلوم البيولوجية كذلك فى مرحلة من مراحل تطورها . فلقد ذكر « هـ.دنجل » « أن سير آرثر ادنجتون اخبرنى فى احدى المناقشات بيننا انه يستخدم مفهوم العلم ، والعلم المضبوط Exact Science باعتبارهما مترادفين.. والنقطة التى تستحق المناقشة هى فيما اعتقد يمكن صياغتها على الوجه التالى : انه فى نظر ادنجتون تكون الهوة التى تفصل بين العلوم البيولوجية والعلوم الطبيعية أعمق من تلك التى تفصل بين البيولوجيا وبين اللاهوت مثلا . وبالتالى فكلمة أو مفهوم العلم اذا طبق على الوجه الصحيح ينبغى

---

[١٠] انظر ص ٢٣١ ـ ٢٣٢

[١١] عالم الفكر ـ المرجع السابق .

الا يطلق الا على الدراسات الطبيعية العامة » [١٢] ولقد كان سير آرثرادنجتون نفسه يقول : « ان الهوة التى تفصل بين ما هو علمى ، وما هو خارج العلم من خبراتنا تتمثل فيما أعتقد لا فى كونها هوة بين ما هو عينى أو محسوس concrete وبين ما يمكن قياسه وبين مالا التجربة abstract ولكن بين ما يمكن قياسه وبين ما لا يمكن قياسه » .

واذا كان هذا هو الحال بالنسبة للعلوم البيولوجية ، فلا شك أن الوضع سوف يكون أكثر حدة بالنسبة للعلوم الانسانية . ولقد اعترض بعض الباحثين على مفهوم ادنجتون عن العلم ، والعلم المضبوط ، واعتبروه نابعا - فى تحليله الاخير - من مفهومات برجسونية قامت على أساس تصور ميكانيكى للقانون العلمى ، ساد فى النصف الثانى من القرن التاسع عشر . واعتقدوا ان تطور العلوم البيولوجية - بل والاجتماعية أيضا - هو الرد الحاسم على مثل هذه الدعاوى .

وما من ريب فى أن العلوم الانسانية ، قد استطاعت أن تفيد كثيرا ، فى ميادين دراساتها المختلفة من تطبيق أساليب البحث فى العلوم الطبيعية ، وخاصة علوم النفس والاجتماع ، وعلى وجه أخص علم الاقتصاد . فعلماء النفس استطاعوا اجراء تجارب فى معاملهم ومختبراتهم على بعض الظواهر التى كشفت عن نوع من الاطراد والنظام فى حدوثها ، وعلماء الاجتماع استطاعوا استخدام المناهج الرياضية والاحصائية ، واعتبر بعض الباحثين استخدام هذه المناهج هو الاصل فى ظهور « السوسيولوجيا الرياضية » ، وما ترتب عليها من روح الصرامة العلمية ، وان كانوا يقصرون فائدتها على حل بعض المشكلات التى تعترض طريق هذا العلم « ففى الواقع ، ما من علم تجريبى يمكنه أن يصبح فى مثل دقة وصرامة العلم الرياضى ، لمجرد أنه يستخدم المناهج الرياضية . وهذا يصدق بشكل خاص على العلوم الاجتماعية ، حيث يمكن استخدام المناهج الكمية فى حل المشكلات المعرفية ذات الطابع المحدد فحسب . غير أنه يكون من الخطأ ، فى نفس الوقت ، من وجهة النظر المنهجية ، أن نقيم أية حدود قبلية فى وجه استخدام هذه المناهج » (١٣) .

واذا كان من الحق ، عدم جواز المصادرة القبلية ، على مستقبل استخدام هذه المناهج فى العلوم الانسانية ، فان هذا لا يمنع - بالطبع - من القول أن ثمة مصاعب تقف حائلا دون التطبيق الكامل لهذه المناهج فى كل فروع العلوم الانسانية بكل مجالاتها ، فى مقدمتها عدم امكان اجراء تجارب على بعض الظواهر التى لا يطرد حدوثها - كما فى بعض مجالات الانتروبولوجيا والاجتماع - وعدم امكان الوصول الى القوانين العامة الكلية المضبوطة بالنسبة لبعض الظواهر كذلك ، بل ان باحثا مثل « ايفانز بريتشارد » يرى « أنه لم يظهر للان اى شىء يشبه ولو من بعيد قوانين العلوم الطبيعية ، وكل ما امكن الوصول اليه هو بعض الاحكام الحتمية أو النائية أو العملية » (١٤) .

غير أنه من الخطأ - مرة اخرى - اقامة حدود قبلية فى وجه استخدام هذه المناهج ، على حد تعبير « كيل » فلا شك أن هذه الحدود القبلية سوف تقيم حواجز تعسفية فى وجه طموح العلوم الانسانية للوصول الى مستوى يقترب على الاقل من دقة العلوم الطبيعية ، ويبتعد بها عن مجرد الاوصاف الكيفية . ولعل العلوم الطبيعية نفسها قد شهدت فى بعض مراحل تطورها ، ظواهر قيل يومها انها تند عن القياس العلمى مثل قياس شدة الاستضاءة ، وقوة الاضاءة ، وغيرها . ولكن تطور البحث العلمى نفسه ، قد استطاع أن يخضع مثل هذه الظواهر نفسها لاساليب القياس العلمى .

- ٤ -

فهل يعنى هذا ، ان العلوم الانسانية يمكن أن تصبح فى حيادها ، وموضوعيتها ، وبعدها عن التقييم ، مثل العلوم الطبيعية والكيميائية والبيولوجية ؟ وبطريقة اخرى ، هل يمكن للعلوم الانسانية أن تتخلص تماما من كل أثر من آثار « الايديولوجيا » ؟

ان احد علماء الاجتماع الكبار فى بولندة يجيب على هذا السؤال بالنفى . يقول **فياتر** [وهو يتحدث خاصة عن ميدان السوسيولوجيا] ان الاوهام التى تكمن فى أعماق النظرة المنهجية للسوسيولوجيا الوضعية الجديدة ، تعود فى أصولها الى افتقار هذه النظرة للنزعة التاريخية Historicism التى هى سمة - فى المقابل - للسوسيولوجيا الماركسية (١٥) . فما هذه النزعة

---

[١٢] H. Dingle : Science and Human Experience P. 75

[١٣] Social Sciences , Functions of Social Sciences under Socialism, V. Kelle. P. 59. Vol. 2 - 1970.
[وهى المجلة التى تصدرها اكاديمية اللوم السوفيتية]

[١٤] ازمة العلوم الانسانية - المرجع السابق ص٢٢١

[١٥] دراسة مستقلة اصدرتها اكاديمية العلوم البولندية
Socialogy,Marxism and Reality, J. Wiatr.

التاريخية التى يتحدث عنها ؟ انها ليست مجرد المبدأ القائل بدراسة الظواهر فى تطورها وفى تغيرها وتحولها ، على الرغم من أهمية هذا المبدأ وحيويته بالنسبة للسوسيولوجيا • ولكنهـا تتمثل فى العناصر التالية •

ا ـ ان السوسيولوجيا هى شكل من أشكال الوعى الاجتماعى ، ومن ثم فان ابحاثها ينبغى ان ينظر اليها فى نفس السياق الذى تجرى فيه كل النظريات الاجتماعية ، وكل أشكال التعبير عن الوعى الاجتماعى . وهذا السياق ، هو جـزء عضوى من التفكير الاجتماعى نفسه . انه يحدد منظورات البحث ، ومعنى المفاهيم المستخدمة ، وطبيعة المشكلات المختارة . والمعالجة التاريخية لتطور السوسيولوجيا تبدأ عندما ينظر الى المفاهيم التاريخية التى نحللها من زاويتين : احـداهما النظر الى كل منها كخطوة تجاه المعرفة الكاملة بالواقع الاجتماعى ، يمكن تحليلها موضوعيا ، من حيث العلاقة بين محتوى الافكار ، والواقع الذى تعبر عنه هذه الافكار او تصفه ، هذا من جانب ، ومن الجانب الاخر النظر الى هذه المفاهيم من حيث هى تعبير عن أهداف عملية متعددة ، يساندها العالم الاجتماعى بوعى أو بغير وعى • أما الزاوية الثانية ، فهى اعتبار السوسيولوجيا شكلا من أشكال الفكر الايديولوجى ، شكلا معينا من الوعى يبلور العالم الاجتماعى ، وينظم خبرات الجماهير بشأنه ، بطريقة عقلية ناضجة •

ب ـ وفى ضوء المقدمة السابقة، تبدوا تأكيدات علماء الاجتماع بأن علم الاجتماع ينبغى أن يشغل نفسـه بمضـمون ، أو بجـوهر القضـايا السوسيولوجية ، لا بوظائفها ، او باستخداماتها المختلفة ، تأكيدات باطلا • فهذه التأكيدات يمكن أن تجد تبريراتها اذا كان العالم الاجتماعى ـ كما هو الحال فى العلوم الطبيعية ـ يقف خـارج موضوع دراساته • بينما الحال ، على عكس ذلك فى العلوم الانسانية ، فالعالم كعضو فى مجتمع ، جزء من الواقع الذى يخضعه للدراسة ، ومعتقداته التى تسبق دراساته ، قد تشكلت تحت تأثير واقع تاريخى معين شارك فيه هو نفسه .

ج ـ والنتيجة المترتبة على ذلك، هى أن العلاقة بين الايديولوجيا والعلوم الانسـانية ـ خصوصا العلوم التى تتعلق بالمجتمع ـ ينبغى أن تكون علاقة جدلية ، لا مثل العلاقة التى تنشأ بين الاشكال المختلفة للتفكير ، وانما مثل العلاقة التى تكون بين المظاهر المختلفة للتفكير نفسه فى الواقع. وعندما نحلل المفاهيم السوسيولوجية من زاوية العلاقة بين الافكار التى تعبر عنها وبين الواقع ، من الممكن عن طريق التجريد العقلى ، ان نتغاضى عن مغزاها الايديولوجى ، وحينئذ تنصب دراستنا علـى مشكلات العلم كما هى ، أو بما هى كذلك ، ولكن القضية تكمن فى عملية التجريد هذه • فنحن قد نـدرس كتـاب مـاركس رأس المـال ، أو كتـاب موسـكا « الطبقـة الحـاكمة » ، أو كتاب « ميلـز » « صـفوة السلطة » فقط كى نمتحن « تجريبيا » الافكار التى تضمنتها هـذه الاعمال • ولكن هذه الاعمال ـ شأن كل الاعمال السوسيولوجية الهامة ـ لا تؤدى وظيفة علميـة فحسب ، بل وتؤدى وظيفة أيديولوجية أيضا ، انها تنظم بطريقة عقلية خبرات الجماهير ، وبالتالى تصبح استمرارا عقليا لنشاطها .وهكذا يلوح ان العلاقة بين العلم والايديولوجية ليست عـلاقة خارجية وعرضية ، وانما هى جزء متكامل من العلوم الانسانية » (١٦) •

ان المثل الاعلى للسـوسيولوجيـا الملتزمة اجتماعيا ، كما يتمثل فى الماركسية ، ليس اذن اكتشافا زائفا ولا اختراعا ملفقا ، كما أنه ليس كذلك اقتراحا باسلوب جـديد فـى البحث السوسيولوجى • انه ، بالاحرى انعكاس للالتزام الفعلى ، الذى لا مهرب منه ، والذى تنطوى عليه السوسيولوجيا ازاء الحياة الاجتماعية ، التـى ليست مجرد دراسات تجرى وانما تغيرات تجرى • ان هذا المثال يضع فى اعتباره الحاجة الى معرفة أكثر وضوحا بالالتزام العملى والايديولوجى لهذا العلم ، ولسائر العلوم من طرازه • ومعنـى وجوده ، او وجودها نفسه ، يكمن فى وظيفتها العملية كمعـرفة علميـة • والسـوسيولوجيـا الماركسية ـ على حد تعبير فياتر ـ تخدم بوعى التطور الاجتماعى ، وتصوغ رؤية للعالم تنظم على أسس عقلية الفعل الانسانى . وهى من ثم تحمل على عاتقها « تحقيق القيم » التى تتبناها القوى الاجتماعية التقدمية والاشتراكية . وليس غياب الايديولوجية بشكل كامل ، من ميدان العلـوم الانسانية ، الا وهما أو تجريدا محضا • فمن الصعب أن نتصور أى سلوك جمعى لا تصحبه ولا تخدمه قيم محددة او افكار معينة ، ولعل مفهوم « نهاية عصر الايديولوجية » الـذى دعى اليه ريمون آرون ـ العالم الاجتماعى الفـرنسى ـ هو نفسه البرهان على ذلك « فلم يستطع هذا المفهوم أن يتخلى عن حمل أيديولوجيـة معينة» (١٧) ! •

---

[١٦] انظر حوار مع اليسار الاوربى المعاصر ـ كتاب الهلال . يونيو ١٩٧٠.

[١٧] Decline of the Era of Ideology ? V. Wiatr , Polish Socialogical Bulletin 2/67